وقيل لجالينوس إنك تُقِلّ من الطعام، فقال غرضى من الطعام أنْ آكل لأحيا، وغرض غيرى من الطعام أنْ يحيا ليأكل.وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لما جاء نعى جعفر بن أبى طالب إنّ آل جعفر شُغِلوا بميتهم عن صنيع طعامهم فاحملوا إليهم ما يأكلون. فهذا سنّة فى حمل الطعام إلى أهل الميت.

الفصل الاربعون

فى ذكر فضائل الفقر وفرائضه. ونعت عموم الفقراء وخصوصهم. وتفصيل قبول العطاء ورده. وطريقة السلف فيه

قال الله الكبير المتعال: للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، وقال تبارك وتعالى: للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض»، فقدّم وصف أوليائه بالفقر على مدحهم بالهجرة والحصر، والله تعالى لا يصف من يحب إلاّ بما يحب، فلولا أنّ الفقر أحب الأوصاف إليه ما مدح به أحباءه وشرّفهم به. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر وأخبر بفضله فى غير حديث، منها عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أى الناس خير، فقالوا موسر من المال يعطى حق الله عز وجل فى نفسه وماله، فقال نِعْمَ الرجل هذا وليس به، قالوا مَن خير الناس يارسول الله، قال فقيرٌ يعطى جهده.. ومنها حديث بلال أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له القِ الله عز وجل فقيراً ولا تلقه غنيا. وفى الحديث الذى روى عن ابن الأعرابى أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال له لا أفْضَلَ من الفقير إذا كان راضيا.. وفى الحديث الآخر أن الله تبارك وتعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال.. وفى الخبرين المشهورين يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام، والحديث الآخر اللهّم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زُمرة المساكين. فهذا منه صلى الله عليه وسلم تفضيلٌ للفقراء وإكرامٌ لهم وتنبيهٌ وحثٌ على فضل الفقر. وروينا عنه صلى الله عليه وسلم خيرُ هذه الأمة فقراؤها، وأسرعها تضجيعا فى الجنة ضعفاؤها. وروينا فى خبر إسمعيل النبى عليه السلام المفسِّر لخبر موسى عليه السلام أنّ إسمعيل قال يارب أين أطلبك؟ فقال الله عز وجل عند المنكسرة قلوبهم من أجلى. قال ومن هم؟ فقال تعالى الفقراء الصادقون. وقد روينا فى تفسير قوله تعالى «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم»، قال الفقر فى

الدنيا، فمن فرائض الفقر عند الفقراء الصبر عليه بترك المسئلة قبل ورود الفاقة، وقطع الهمّ عن التشرّف إلى الخلْق، وأنْ لا يتناول عند الحاجة ما حظره عليه العلم، ولا يجاوز حداً من حدود الأحكام، وإنْ سأل عند حاجة لم يستكثر ولم يدخر، فإنْ أعطى فوق كفايته فاقتناه ليكف عن المسئلة فلا بأس به، ويتوخى فى مسئلته المتّقين ومن يعلم أنه يتحرى فى مكسبه، فإنّ مسئلته عملٌ له يلزمه التورع فيها كما يلزمه الورع فى مكسبه، ولا يسأل من يعلم أنه لا يبالى من أين يأكل، ومَن لا يُردَع عن الحرام فى مكسبه. والعبد بنفس الحاجة والجوع يستحق على إخوانه شبعة يقيم بها صلْبه ويُسكِن بها نفسه، وبنفس العُرى والعُدم يستحق عليهم ثوباً يوارى به عورته، وذلك لازم للمسلمين وواجب له،فإنّ قام به بعضهم سقط عن بعضٍ وحوبه. وإنْ سأل ذلك فلا شىء عليه. ويقال إنّ كفارة المسئلة صدق السائل فى مسئلته، وصدقه أن لايسأل إلاّ بعد فاقته ومع خوف التقصير فى أداء فرائضه من اختلاف عقله وتشتت قلبه، وأنْ يكف مع أول الكفاية، ولا يدخر بعد الشبع ليستكثر، ولايجعل المسئلة إنْ دُفِعَ إليها له عادة وكدا ولا جرفة، ومهما استغنى عن السؤال فليكن الفقر أحب إليه فإنه أفضل له.

وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** للسائل حق وإنْ جاء على فرس.فلو كانت المسئلة إثما وعدواناً لم يُحَثّ على الإعطاء فيكون معاونا على الإثم والاعتداء، ولكن ذلك من البرّ والتقوى لأنه سببٌ منه ودالٌ عليه، فعاون بالأمر به لحُرمة الإسلام، ولأن المواساة من المعروف والإحسان. وسمع **عمر** رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال يا **يرفا** عَشٌ الرجل، فعشّاه، ثم سمعه ثانية يسأل، فقال ألم أقل لك عشٌ الرجل، فقال قد عشيته، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوأة خبزاً، فقال لستَ سائلا ولكنك تاجر، ثم نثر المخلاة بين يدىّ إبل الصدقة وضربه بالدرّة. وروينا عن **علىّ** عليه السلام أن لله عز وجل فى خلقه **مثوبات فقر وعقوبات فقر**، فمِنْ علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يَحسُن خُلُقُه، ويطيع به ربه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره. ومن علامات الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلُقه، ويعصى به ربه، ويُكثر الشكاية، ويتسخّط القضاء. وهذا النوع الذى هو عقوبة من الفقر هو الذى استعاذ منه النبى صلى الله عليه وسلم وهو **فقر النفْس**، لأن الفقر من المال إنما هو **الافتقار** إلى الخلْق، **والفقر** إلى الأشياء مع عدم صدق الحال.

وبايع **رسول الله صلى الله عليه وسلم** قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع

والطاعة، ثم قال كلمة خفيفة- ولا تسألوا الناس شيئاً ، فكان صلى الله عليه وسلم يأمر بالتعفف والكفّ عن المسئلة، ويقول من سألنَا أعطيناه، ومن استغنى أغناه الله عز وجل. وقال مَن لم يسألنا فهو أحب إلينا. وقال عليه السلام استغنوا عن الناس وماقلّ من السؤال فهو خير، قالوا ومنك يا رسول الله، قال ومني. فلو لم يكن في ترك المسئلة إلاّ دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن سأل عن غِنًى فإنما يستكثر من جمر جهنم، ومَن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظْم يتقعقع ليس عليه لحم. وفي خبر آخر كانت مسئلته خُدُوجا وكدُوحا في وجهه. وفي الحديث استغنوا بغنَى الله عز وجل، قالوا وماهو، قال غداء يوم أو عشاء ليلة. وفي الخبر مَن سأل وله خمسون درهما أو عِدْلها من الذهب فقد سأل إلحافا. ومَن كان معه هذا القدر من الدنيا لم يخرجه من عموم الفقراء، فإنْ سأل مع ذلك أخرجه من عمومهم. ومن سأل قبل الجوع أو بعد الشبع، أو سأل ليدخر، أو سأل وله غداء يوم أو عشاء ليلة، أخرجه ذلك من خصوص الفقراء.

وسئل **سفيان الثوري** عن أفضل الأعمال فقال التجمل عند المحنة، وعلى الفقير أن لا يزكّى غنياً لأجل عطائه، ولا يذمّه ولا يمقته لأجل منعه، ولا يعظّم أهل الدنيا ولا يكرمهم لأجل دنياهم. وقال **ابن المبارك** مِن تواضع الفقير أن يتكبّر على الأغنياء. وعن **علّي** عليه السلام ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبةً في ثواب الله عز وجل، وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل. ومن **فرائض الفقر** أنْ لا يسكت الفقير عن حق ولا يتكلم بهوى لأجل دوام العطاء من أحد، ولا لاجتلاب نفع، فإنّ ذلك وليجة في الدين ومداهنة للمؤمنين. ومن **فضائل الفقر** أنْ لا يدخر لأكثر من أربعين يوما، ولا يكون المدّخَر أكثر من أربعين درهما، والأصل في ذلك أن الله تبارك وتعالى قال «**وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة**»، فإذا فسح له في تأميل أربعين فالادخار من الأمل، فإنْ أمِل حياة أربعين يوما جاز له أنْ يدخّر لأربعين، ومن قَصُر أملُه إلى يوم وليلة لم يدخر إلاّ ليومه وليلته، فترْكُ الادخار مقتضى قِصَر الأمل. وقد جعل غِنَى الفقير في أربعين درهما فهذا لعموم الفقراء، فأمّا خصوصهم فإن غناهم غداء يوم أو عشاء ليلة لقِصَر أملهم.

ومن **فضل الفقير** أنْ لا يهتم برزقِ غدٍ، كما أنّ الله تبارك تعالى لا يطالبه بعمل غد قبل مجيئه، ولأن الرزق معلوم مقسوم والوكيل حفيظ قيوم، وأن يكون راضيا بفقره شاكراً عليه،

ويغتبط بالفقر لعظيم نعمة الله عز وجل عليه فيه، ويخاف أن يُسلَب فقره أشد من خوف الغنى أنْ يُسلَب غناه، لشدة اغتباطه به. وفى الخبر عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** يامعشر الفقراء، اعطوا الله عز وجل الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلاّ فلا.

وفى الخبر عن الله عز وجل إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحبا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنبٌ عُجِّلتْ عقوبته. وقال **موسى** يارب مَن أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك، فقال كل فقير فقير. التكرار فيه لمعنيين، أحدهما المتحقق بالفقر، والثانى الشديد الحاجة والضر. وقال **عيسى صلّى الله عليه وسلم** إنى لأحب المسكنة وأبغض الغِنىَ. وقيل كان من أحب أسمائه إليه أنْ يقال له يامسكين. وقال **رسول الله صلّى الله عليه وسلّم** فى دعائه الذى تلّقاه من ربه وأمره به: أسألك الطيبات وفعل الخيرات وحب المساكين.

ومما يعتبر به فضل الفقر على الغنى أنّ أفضل الخلق هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن شاركه وقارنه بمعنى وصفه فهو الأفضل لأنه الأمثل فالأمثل، وهم الفقراء وصفهم الله عز وجل بوصفه فقال تعالى« **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه**» الآية، فلمّا شاركوه فى العُدم وكان حال الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو الأفضل والأتّم، دلّ على فضل حالهم على غيرهم. وقد قال الله عز وجل« **إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء**»، وقال تعالى «**كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**»، فوصف الأغنياء بالطُغو وأوقع عليهم الحجة. وقال فى وصف الفقراء «يحسبهم الجاهل أغنياء»، فلولا أنّ الغِنَى مفضول ما نُسِب مَن وصفهم به إلى النقص. والغِنَى باب الدنيا وأصل التفاخر والتكاثر المذموم. والفقر باب الآخرة وأصل الزهد والتواضع المحمود. وعند أهل المعرفة أن الغِنَى من الصفات التى لا ينبغى أنْ يُنازَع فيها، ومكروهة لِمَن ابتُلى بمعانيها، وأنه مثل العز والكبر وحب المدح والذكر، فمن أحب شيأً من ذلك وطلبه فقد نازع الله تعالى لِبْسته، وتركوا ذلك لأجل الله عز وجل لأنه من صفات الربوبية، وسلّموه له خوفاً منه أو حباً له، وأنّ الفقر من صفات العبودية مثل الرجاء والخوف والتواضع والذل، فمن طلب ذلك وأحبه فقد تحقق بوصف العبودية، ومن أحب الغِنىَ دل على حبه البقاء. وكان **سهل** يقول حُبُّ الغِنَى شِرْك فى الربوبية، أى لأن البقاء من صفات الباقى. ومَن فضّل الغنى على الفقر دلّ على حبه للغِنَى فظهر بذلك محبة الأغنياء، لأن حب الوصف دليل على حب الموصوف. وحب

الشيء أيضا دليل على بُغض ضده، فإذا أبغض الفقراء أبغض الفقر ، وبغّض الفقر لحُبّ الغِنَى، فقد اختار الرغبة على الزهد، والكثرة على القلة، والعز فى الدنيا على الذل، وفى هذا إيثار الدنيا على الآخرة.

ويقال كان الفقر شرف المؤمن، وكان الفقراء فيما سلف فى المؤمنين بمنزلة الأشراف. ثم إنّ الفقراء على منازل **ثلاث**: **فقراء الأغنياء** وهم السُؤّال عند الفاقات الكافّون نفوسهم مع الكفاية، القانعون بالكفاف، وهم طُهرة الأغنياء ومزيدهم من الله تعالى، وهم الذين جعل الله لهم فى أموال الأغنياء سهما لأن منهم **السائل والمحروم**، ومنهم **القانع والمعتّر**. **والطبقة الثانية فقراء الفقراء** وهم المتحققون بالفقر، المختارون له، المؤثرون إياه على الغنى، لا يبتذلون للسؤال، ولا يعرضون فى المقال، راضون بالميسور من مولاهم، تعرفهم من سيماهم، يحسبهم الجاهل أغنياء لترك المسئلة والشكوى، ومنهم **المحروم**، حُرِم السعى للدنيا، ومنهم **المحارِف** انحرفت عنه الأسباب، ومنهم **القانع** قنع بما يصل إله من غير امتهان وتبذّل فيه، ومنهم **المعتّر** رضى عن الله عز وجل بما يعتريه. وأما **الطبقة الثالثة فهم أغنياء الفقراء**، وهم الأجواد الأسخياء أهل البذل والعطاء، يأخذون ويخرجون ولا يستكرون ولا يدخرون، إنْ مُنعوا شكروا المانع لأنه هو المعطى، فصار منعه عطاء، وإنْ ضُيِّق عليهم حمدوا الواسع لأنه هو المحمودُ فصار ضيقه رخاء، وإن أُعطوا بذلوا وآثروا، فهم الزاهدون فى الدنيا لأنهم موقنون فكفاهم اليقين غِنًى. وقد كان **بشر** يقول الفقراء **ثلاثة**: **فقير لا يسأل وإنْ أُعطى لم يأخذ**، فهذا مع الروحانيين فى علّيين، وفقير **لا يسأل وإنْ أُعطى أخذ**، فهو مع المقرّبين فى حظيرة القدس، وفقير **يسأل عند فاقته** فهذا مع الصادقين، وصدقه فى حاله كفّارة مسئلته. ودُفِع إلى **إبراهيم بن أدهم** ستون ألفا وكان عليه دين وبه حاجات إليها، فردّها فعوتب فى ذلك، فقال كرهت أن أمحو اسمى من ديوان الفقراء لستين ألفا وقد كانت **عائشة** رضى الله عنها تفرّق مائة ألف فى حين أنّ درعها لمرقوع، فقالت لها الخادمة لو اشتريتُ لك بدرهم لحماً تفطرين عليه، فقالت لو ذكّرتنى لفعلت. وكان **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أوصاها فقال: إنْ أردتِ اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تنزعى ثوباً حتى تُرقّعيه.

ونحن لم نقل ليس الغنى طريقا للأغنياء إلى الله، وإنما فضّلنا طريق الفقراء لأنهم الأمثل

فالأمثل بالأنبياء. وعن **الحسن** في قوله عز وجل **وما يستوى الأحياء ولا الأموات**، قال الفقراء والأغنياء فجعل الفقراء أحياء بمولاهم، وجعل الأغنياء موتى بدنياهم. وقال **الثورى** رحمه الله إذا رأيت الفقير يداخل الأغنياء فاعلم أنه مُراء، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص. فمن فضّل الغنَى على الفقر بعد الأخبار التى وردت فى تفضيل الفقر والفقراء فأحسن حاله الجهل بالسنن لإيثار الرأى والهوى على مافيه أثر وسنّة، لأن الأثر إذا جاء فى شىء لم يكن للرأى فيه مدخل، وكان فى مخالفته مع العلم به عناد ومحادّة.

فإن لم يكن للفقير معلوم من الدنيا، وكان رزقه قد أُجرى على أيدى العباد من غير تعويض منه لهم من صنائع الدنيا، فقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أن هذا المال مال الله، فمن أخذه بحقه بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، فكان كالآكل ولا يشبع. وروينا من أتاه شىءٌ من هذا المال من غير مسئلة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه، وفى لفظ آخر فلا يردّه. فإنْ كان محتاجاً إليه وإلاّ فليصرفه إلى من هو إليه أحوج منه. وروينا عن **الحسن وعطاء** حديثاً مرسلاً أنّ **النبى صلى الله عليه وسلم** قال من أتاه رزقه من غير مسئلة فردّه فإنما يردّه على الله. وروينا عن **أنس بن مالك** عن النبى **صلى الله عليه وسلم** ما المعطى من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجا. وقال بعض العلماء لو هرب العبد من رزقه لطلبه حتى يصل إليه، كما لو هرب من الموت لأدركه. وقال **أبو محمد** رحمه الله لو أن العبد سأل ربه فقال لا ترزقنى لما استجاب له وكان عاصيا، ويقال له ياجاهل لابد أنْ أرزقك كما خلقتك.

ثم إنّ **الرزق** على **وجهين**، عن معان لا تحصى وأسباب لا تعدّ ولا تضبط، فمن الرزق ما يأتى العبد بسكونه وقعوده فيكون الرزق هو الذى تحرك إليه ويأتيه، ومنه ما يأتى العبد بحركته وقيامه، والرزق فيهما واحد، والرازق بهما واحد، والحكمة والقدرة فى المتحرك القائم وفى الساكن القاعد واحد، إلاّ أن الأحكام فيهما متفاوتة. ثم إنّ **الأشياء** كلها على **ضربين**، مُسخّر لك ومسلّط عليك، فما سُخِّر لك سُلّطتَ عليه وهو نعمة عليك، وعليك الشكر عليه، وهذا مقام الشكر على معنى الرزق، وما سلّط عليك فقد سُخّرتَ له أنت وهو بلاء عليك، وعليك الصبر فيه، وهذا مقام الصبر عن معنى الابتلاء.

ولا يُستَحبّ للفقير أن يأخذ إلاّ من صديق، ولا يقبل إلاّ ممن يحب، لأن لأهل المعرفة بالله

عز وجل أن يحكموا فى الأسباب بما أراهم الله تعالى من الردّ أو من القبول. وحدثونا عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال يارب جعلتَ رزقى هكذا على أيدى بنى إسرائيل، يُغذّينى يوما هذا، ويُعشّينى هذا الليلة، فأوحى الله إليه هكذا أصنع بأوليائى، أُجرى أرزاقهم على أيدى الطالبين من عبادى ليؤجَروا فيهم. والعالِم القاعد عندهم أفضل من الجاهل المتصرّف، والعالم المتكسّب أفضل من القاعد الجاهل، والقوى التارك للتصرّف أفضل عندهم من الضعيف المتصرّف، والقوى المتصرّف أفضل من الضعيف التارك للتصرّف.

وقد جعل الله **المستحقين للعطاء ستة**، ذكرهم فى آيات **ثلاث**، فقال عز وجل فى الآية الأولى **«إنما الصدقات للفقراء والمساكين»**، وقال فى الثانية **«وفى أموالهم حق للسائل والمحروم»**، وقال فى الثالثة **«فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر»**، فمن لا معلوم له من تكسّبٍ أو تصرّف فهو أدخل شىء فى هذه الآيات وأحوج إلى الإعطاء. ومن كان ذا معلوم يحتاج إلى أكثر منه لفضل عيْلة أو كثرة نفقة، فإنه يدخل بمعنى من أوصافهم. وكان **ابن عباس** رضى الله عنه يقول فى الآية **«إنما الصدقات للفقراء والمساكين»**، نزلت فى أهل الصُفّة ومن كان فى معناهم إلى يوم القيامة، وكانوا **أربعمائة وخمسين** رجلا لم تكن لهم عشائر بالمدينة ولا أموال كالمهاجرين والأنصار. وكانوا نزّاع القبائل، أسكنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صُفّة المسجد وقسّم الله عز وجل لهم الأموال. ثم إن الله سبحانه وتعالى أفرد **طبقة سابعة** عن جُمْل هؤلاء الستة، ووصفهم بأحسن الصفات فقال: **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم»**، وقال **«وما تنفقوا من خير يوف إليكم»**، وكل هذا متصل متعلق بقوله عز وجل **«للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض»** إلى آخر أوصافهم، فوصفهم بالإحصار فى سبيله، وبالعفة عن الدنيا وأبنائها، وأنهم لا يلتحفونها التحافاً لزهدهم فيها، وسَمّى من لا يعرف أوصافهم جاهلاً، فهذه الطائفة فوق الطبقات الموسومة بالصدقات، المقسوم عليها الزكوات، بل أمر المؤمنين بالإنفاق عليهم من الاكتساب للطيبات من بعد وصف أحسن الخالقين لهم، والله تبارك وتعالى لا يحب عبداً إلاّ وصفه، والوصف دليل على الحب، والمحبة تدل على الفضل العظيم.

وقد قال بعض **الصوفية** فى معنى قول **النبى صلى الله عليه وسلم** يد المُعطِى هى العليا، ويد المُعطَى هى السفلى، أنّ المُعطِى هو الفقير وأنّ المعطَى هو الغنى، ويكون دليل هذا

القول قوله إنّ الصدقة تقع بيد الله سبحانه تعالى قبل أن تقع بيد السائل، وهو يضعها فى يد السائل، فقد صارت يد الفقير هى العليا، لأنها تتلقى عن الله، والله تعالى يقول يد الله فوق أيديهم، ذلك أنها فوق الكل، ولأنه هو المُعطِى الأوّل لهما جميعا، فكما لا أول أول منه فى العطاء، فكذلك لا يد فوق يده فى الإعطاء، وإنما الترتيب بين الغنى والفقير أيهما المعطِى بعد يد الله تعالى، فقلنا إنّ المعطى فى الحقيقة إذ كان العطاء الحقيقى هو ما يبقى ويدوم لا ما يفنَى ويزول، وذلك هو العطاء من الآخرة الباقية فصار الفقير هو المُعطِى للغنى فى الدنيا نصيبَه من الآخرة، فأما يد الله تعالى فإنها فوقهما والذى أعطاهما جميعا، لأن يده فوق الفوق، وفوق التحت، لا يوصف بتحت ولا بأسفل، تعالت أوصافه العليا عن نعوت الخلْق السفلى، وهو لا يدخل تحت القياس والتشبيه. فقد حدثنا بعض إخواننا عن شيخ له فقال رأيت **أبا الحسن النورى** يمد يده ويسأل الناس فى بعض المواطن، قال فأعظمت ذلك واستقبحته، فأتيت **الجنيد** فأخبرته فقال لا يعظُم هذا عليك فإن النورى لم يسأل الناس إلاّ ليعطيهم. إنما سأل لهم ليثيبهم من الآخرة فيُؤجَرون من حيث لا يضره.

ذكر اختلافهم فى إخفاء العطاء وإظهاره

ومن رأى أن الإظهار أفضل وتفضيل ذلك، قداختلف فعل المخلصين فى ذلك، فرأى بعضهم أن يُخفِى ما يأخذ من العطاء، لأنه أدخل فى التعفف، وأقرب إلى التصوّن، وأنه أسلم لقلوب الغيَر، وأصلح لنفوس العامة، وأنّ فيه النُصرة لإخوانه من الغيبة والتهمة، بمثل ذلك أو بأكثر منه، وفيه الاحتياط لأخيه، وعوْنٌ له على البرّ والتقوى فى قوله عز وجل «**إنْ تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم**»، وللخبر الذى جاء أفضل الصدقة جُهد المقل إلى فقير فى سرّ، لأن عمل السرّ يفضل على عمل العلانية بسبعين ضعفا. وقد روى عن **النبى صلى الله عليه وسلم** استعينوا على أموركم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود. وهذا **مذهب القُرّاء** من العابدين. وقال **أيوب السختيانى** إنى لأترك لِبس الثوب الجديد خشية أن يُحدث فى جيرانى حسداً. وقال **بعض الزاهدين** ربما تركت استعمال الشىء لأجل إخوانى يقولون من أين هذا. ودفع رجل إلى **بعض العلماء** شيأً ظاهراً فردّه، ودفع إليه آخر شيأً فى السرّ فقبله، فقيل له فى ذلك فقال إنّ هذا أخفى معروفه وعمل بالأدب فى معاملته فقبلنا عمله، والذى أظهر معروفه أساء فى الأدب فى المعاملة فرددنا عمله عليه. ودفع بعض الناس إلى **بعض الصوفية** شيأً بين الملأ فردّه، فقيل له لِمَ تردّ على الله عز وجل ما أعطاك، فقال إنك أشركت غير الله سبحانه

وتعالى فيما لله ولم تقنع بعين الله عز وجل، فرددت عليك شِرْكك. وقد كان **بعض العلماء** لا يقبل فى العلانية ويأخذ فى السرّ، فسُئل عن ذلك فقال إنّ فى إظهار الصدقة إذلالاً للعلم وامتهاناً لأهله. وكذلك حدُثنا أن رجلاً دفع إلى **بعض العارفين** شيأ علانية فردّه، ثم دفعه إليه فى السرّ فقبله، فقيل له رددت فى الجهر وقبلت فى السرّ، فقال لأنك أطعت الله تعالى فى السرّ فأعنتك على برّك بقبوله، وعصيتَه بالجهر فلم أكن عونا لك على المعصية. وقد كان **سفيان الثورى** يقول لو علمتُ أنّ أحدهم لا يذكر صلته ولا يتحدث بها لقبلتُ صلته. وفى هذا لعمرى مواطأة لما ندب الله تعالى إليه من الإخفاء، ولما أمَر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضّله من أعمال السر.

وذهب آخرون من **أهل المعرفة** الموصوفين بالتوحيد إلى أن الإظهار للآخذ أفضل، لأنه أسلم له وأدخل فى الإخلاص والصدق، فليس علينا إذ علمنا فى سلامتنا وحُكم حالنا من إسقاط جاهنا بالأخذ علانية ماوراء ذلك من أقوال الناس، يتولى الله عز وجل من ذلك من به ابتلاه. وقالوا ولأن فى التوحيد أن الظاهر والباطن هو المُعطِى فلا معنى للردّ عليه فى الظاهر. وقد قال بعضهم سرّ العارف وعلانيته واحد لأن المعبود فيهما واحد، فاختلاف فعل أحدهما شِرْك فى التوحيد. وقال بعض العارفين إذا أخذتَ فأظهِر فإنها نعمة من الله إظهارها أفضل، وإذا رددت فاخْفِ فإنه عمل لك وإسراره أفضل. وهذا لعمرى قول فصل، وهو طريق العارفين. وقال بعض علمائنا إظهار العطاء من الآخذ آخرة، وكتمانه دنيا، وهذا كما قال الله تعالى **وأما بنعمة ربك فحدّث**. وقد ذمّ الله تبارك وتعالى من كتم ما أتاه الله من فضله وقرنه بالبخل، والبخل باب كبير من الدنيا، فقال تعالى **الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما اتاهم الله من فضله**. وقال **النبى صلى الله عليه وسلم** إذا أنعم الله عز وجل على عبد نعمة أحب أن تُرى عليه.. وهذا هو الأقرب إلى قلوب الموّحدين من العارفين، لاستواء ظروف الأيدى عندهم من العبيد، ونفاذ نظرهم إلى المُعطِى الأول فاستوى سرّهم وعلانيتهم فى الأخذ من يده.

وفصل الخطاب فى هذا الباب عندى أنه يحتاج إلى تفصيل، فنقول والله أعلم إن الخلْق مبتلَى بعضه ببعض، وفرض كل عبد القيام بحكم حاله ليفضُل بقيامه ويسلَم فى حاله، فعلى المُعطِى أنْ يُخفِى ويُسِّر جهده، فإنْ أظهر تَرَك علْمَ حاله فنقص بذلك، فكانت هذه آفة من آفات نفسه، وباباً من أبواب دنياه، وعلى المُعطَى أنْ يذْكُر وينشر، فإنْ أخفَى وكتم فقد ترك الإخلاص فى عمله ونقص لذلك، وكانت آفة من آفات نفسه وباباً من دنياه مثله. ورووينا أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أُسدِى إليه معروفٌ فليكافِىء به، فإنْ لم يستطع فليثن به. وفى لفظ آخر من أسدَى إليكم معروفا فكافؤه، فإنْ لم تستطيعوا فاثنوا به خيراً وادعوا له حتى يعلم أنْ قد كافئتموه. والخبر العام بمعنى ذلك من لم يشكر الناس لم يشكر الله.

والنوع الثانى من التفضيل أن على المعطِى أن لا يحب أن يُذكَر معروفه، ولا يُشكر، فإن علمتَ من يقصد ذلك ويحبه منك فتركُ الثناء على مثل هذا والكتم من الفقير أفضل.

ومن الناس من يستوى عنده إظهاره للعطاء وإخفاؤه، لصحة يقينه بذلك، وإخلاص نيته فيه، ونفاذ مشاهدته بدوام نظره إلى المنُعِم الأول، فهذا إن قبلتَ منه علانيته صلُح، وإنْ أثنيتَ عليه بذلك جاز، لقوة معرفته وكمال عقله وسبق نظره إلى مولاه فيما وفّقه به وتولاّه، فيشكر له ذلك ويراه نعمة منه. ولمثل هذا جاء الخبر المشهور إذا مُدِحَ المؤمن رَبَاَ الإيمان فى قلبه. وقال بعض العارفين يُمدَح الرجل على قدر عقله. وقال **الثورى** من عرَف نفسَه لم يضره مدح الناس له.

والنوع الرابع من التفضيل من الناس مَن إذا أظهر معروفه فسد قصده بذلك، واعتورته الآفات من التزيّن والتصنّع، فمثل هذا لا يصلح أن يَقبَل منه ما أعلَن به، لأنه يكون معينا له على معصيته، وهذا أيضا لا يصلح أنْ يُثنىَ عليه، فإنْ ذكّر بمعروفه أو مُدِح به كان ذلك مفسدة له واغتراراً منه، لقوة نظره إلى نفسه ونقصان معرفته بربه، فمن مدح هذا فقد قَبِله، ومن ذكّره بمعروفه فقد أعانه على شِرْكه.

ثم اختلفوا فى الأخذ، مِنْ الواجب أفضل أم من التطوع، فرأى بعضهم أنْ يأخذ من الواجب ولا يقبل من التطوع، لأن الواجب يؤخذ بإذن الله تعالى، والله تعالى أوجب عليه أن يأخذه من حيث أوجب الزكاة، فلو أن الفقراء والمساكين تواطؤا على أن لا يقبلوا الزكوات، أثِموا أجمعون، ولعصوا كلهم بذلك، لإسقاطهم فرض الله عز وجل من الأموال بالزكوات وأيضا لأن هذا أدخل له فى جملة الضعفاء والمساكين، وأقرب إلى التواضع والذلّة، قالوا ولا منّة لأحد علينا فيه، ولاحقّ يلزمنا عليه إذا كنا نستحق ذلك منه. قالوا لأنه أسلم لديننا لئلا يدخل علينا الأكل بالدّين، لأنّا إنما نستوجبه بالحاجة وحرمة الإسلام فقط، ونخاف أن يكون أخذنا بالتطوع أكلاً بديننا، أو أنّا أُعطينا لصلاحنا واعتقاد فضلنا فلا نحب ان نُخَص بشىء دون الفقراء. وهذا **مذهب القُرّاء** من العابدين. واختارت طائفة أنْ يأخذوا من النوافل دون

الفرائض، أجروه مجرى الهدية، وقالوا قد أُمر بقبولها ونُدِب إلى التهادى للتآلف والتحبب. وقالوا ولا نزاحم المساكين فى حقوقهم، ولعلنا لا نكمل أوصافهم ونخاف أن لا يوجد فينا ما شرط الله عز وجل لواجبه، ولا نضعه فى حقيقة موضعه، أو لا نحتاط لمن يسقط عنه الواجب به، فالتطوع أوسع علينا، ومع هذا فإنهم يشهدون النعمة من الله تعالى، وأن الدين إنما هو لله عز وجل كما قال «**ألا لله الدين الخالص**»، وأنهم مستعمَلون بأنفسهم من حيث كانوا مُنعَماً عليهم لا منعِمين على أنفسهم. وهذه طريقة بعض أهل المعرفة، وممن ذهب إلى هذا **إبراهيم الخواص وأبو القاسم الجنيد** ومن وافقهما. والأمر فى ذلك عندى أن من لم يأخذ من كل إنسان ولا فى كل أوان، ولم يقبل إلا عند الحاجة وما لا بدّ له منه، ثم قام بحكم الله تعالى فى الواجب وحكمه فى التطوع، أنّ الحالين يتقاربان، لأن الواجب أمرُ الله تبارك وتعالى فيه حُكم، والتطوع ندْبٌ، وله عزّ وجلّ فيه حُكم، فعلى العبد أن ينظر لدينه ويحتاط لأخيه فيعمل بما يوجب الوقت من الحكم من أيهما كان، فسواءٌ ذلك، ولا ينظر بُظلمة النفس فى هوى الحظ، ففى ذلك سلامته.

الفصل الحادى والأربعون
فى كتاب حكم المسافر والمقاصد فى الأسفار

فإن سنح لهذا المريد سفرٌ ففى الحديث البلاد بلاد الله عز وجل، والخلق عباده، فحيث ما وجدتَ رزقاً فاقْمْ واحمدْ الله عز وجل. والخبر المشهور سافروا تغنموا، فغنيمة أبناء الآخرة ربح تجارة الآخرة. وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين «**ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها**»، وقال عز وجل «**قل سيروا فى الأرض فانظروا**»، وقال تعالى «**وفى الأرض آيات للموقنين**». وقال جلّ وعلا «**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**»، فمن جُعلت آياته فى نفسه تبصّر ففطن، ومن جُعلت له الآيات فى الآفاق سَرَب وسَرَى، وكذلك قال الله عز وجل «**وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون**»، ومثله «**وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون**». فمَن سار فكانت له بصيرة اعتبر وعقل، ومن مرّ على الآيات فنظر إليها تذكّر وأقبل. وقد أمر الله عز وجل بالمشى فى مناكب بساطه، والأكل من رزقه بعد إظهار نعمته بتذليل مهاده، فقال سبحانه وتعالى «**هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه**»، قيل فى أسواقها، وقيل. قُراها، وقيل جبالها لأنها أعاليها.